هذا الانسان . . .

يصطلح المؤرخون الأوربيون على تسمية العصور التى تقع بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ للميلاد بالعصور المظلمة . ذلك لأن العقل البشرى خبا وأوشك أن ينطفئ . فكانت أوربا فى ظلام الجهل لا ترى رؤيا العقل والأدب والعلم . وبقيت فى هذا الظلام إلى بدايات القرن الحادى عشر حين بزغ النور على أضعف ما يكون ، ولكنه ما زال يتجمع حتى انفجر فى القرن الخامس عشر .

فاذا انتقلنا من التاريخ البشرى إلى التاريخ البيولوجى وجدنا أيضا « عصوراً مظلمة » . فقبل نحو ٧٠ أو ٨٠ مليون سنة عم العالم ظلام ، كأن الحياة ، فى الاعتبار البشرى ، قد أخفقت وسدت على نفسها طريق الرقى . ذلك أن الأحياء انتهت إلى أنواع من الحيوان يطلق عليها فى أيامنا اسم الزواحف الكبرى . وكانت هذه الزواحف التى لا تزال هياكلها باقية فى المتاحف ، بل كذلك بيضها ، تشبه إلى حد كبير التماسيح والعظايا والورن والسلاحف . ولكنها كانت فى الحجم تترجح بين الكلب والفيل ، بل كانت تزيد أحيانا على الفيل . وكانت تعيش فى كل مكان فى الغابات والأنهار والسهول والجبال والبحار . وقد انقرضت لأسباب لا تزال مجهولة . ولم يبق منها ، بعد تطورات مختلفة جعلتها بعيدة عن الزواحف القديمة ، سوى تلك الزواحف الصغيرة والكبيرة فى أيامنا . وهى لا تحيا إلا تلك الحياة السرية ، تختبىء من الأحياء الأخرى وتخشى الافتراس ، وتسعى فى الظلام وتتجحر فى النهار .

وعاشت هذه الزواحف الكبرى نحو ثلاثين أو أربعين مليون سنة . وكأن التطور قد تجمد بها . وكأن اتجاه الطبيعة نحو الانسان بايجاد العقل قد انحرف ، فلم تعد الغاية نمو العقل ، بل أصبحت نمو الجسم .

ومن قبل ذلك بملايين السنين تجمد التطور بامجاد الحشرات التى اتجهت وجهة أبعد ما تكون عنا ؛ اذ قنعت بالغريزة كأنها من الشجر . حتى أن برجسون ، فى نزعة غيبية مسرفة قال إن فى الحياة طريقين أحدهما طريق الغريزة ، وقد قطعته الحشرة إلى نهايته ، والآخر طريق العقل ونحن البشر فى طريقه لما نبلغ نهاينه . ولو أن برجسون كان قد عاش أيام الزواحف الكبرى لوصل إلى مثل هذا الفرض أيضا . ولكن الحياة « موسوعية » تحاول وتجرب وتبيد الأحياء الفاشلة ، وتتحسس الوسائل الصغيرة لتجاربها الكبيرة .

وانقراض الزواحف الكبرى مجال للحدس والتأمل . فلعلها انقرضت لأنها كانت كبيرة الحجم عملاقية التركيب . ونحن نعرف أن العالقة الشاذين الذين يولدون بيننا من البشر يعقمون أى لا يتناسلون . والفيل أكبر الأحياء على اليابسة لا يلد إلا مرة كل ٢٠ سنة . ولكن هذا التعليل لا يكفى ؛ لأنه كان بينها زواحف فى قدر الكلب أو الحمار أو الفرس . وهناك من يقول بأن التغير المناخى قد ابادها ، اى إن الدنيا بردت فجأة ودخلت فى عصر جليدى ، فلم تتحمل هذه الزواحف المناخ الجديد . ولكن هذا بعيد ؛ لأن التطور كان أحرى بأن يسعفها بفراء أو ريش بدلا من أن يتركها لتنقرض . وأخيرا هناك من يقول بأن اللبونات الجديدة كانت تأكل بيضها وتحول دون تناسلها . وهذا حدس لا أكثر .

ولكن بعد نحو ٣٠ أو ٤٠ مليون سنة من هذا الكابوس الذى جثم على العالم نجد أمارات العصر الجديد أو النهضة البيولوجية . فمن ناحية نجد الطيور ومن ناحية نجد اللبونات . وليس فى أيامنا طيور قديمة تحتوى مناقيرها على الأسنان ، ولكن بقاياها أو أحافيرها توجد فى المتاحف أما اللبونات القديمة فلا يزال بعضها حيا حتى فى أيامنا فانها تبيض ولا تلد . ثم هى مع ذلك ترضع أولادها بطريقة بدائية ؛ إذ يتشقق البطن ويخرج من شقوقه سائل دموى لبنى تلحسه الأطفال . وهذا هو الرضاع البدائى كما نراه فى حيوانين هما البلاتيبوس فى استراليا والنمّال أو آكل النمل فى أمريكا الجنوبية

وظهور الطيور هو خطوة كبيرة جدا فى التطور ؛ لان الاحساس عند الطائر انتقل من الأنف إلى العين . فالى ظهور الطيور كانت جميع الأحياء ، فى البحر واليابسة ، تسعى للطعام والأنثى بالأنف . ولكن ميدان الشم صغير

محدود . أما ميدان العين فيتسع إلى الآفاق ويزيد الملاحظة والمقارنة فيزيد الذكاء .

وحوالى ٣٠ مليون سنة قبل عصرنا نجد أحياء من اللبونات الجديدة تعيش على الشجر وتعتمد على عيونها . وهى مضطرة إلى ذلك غير مختارة ؛ لأن المجال للشم على الشجرة صغير جدا . ولكن هذه اللبونات لم تكن مسلحة بالريش لكى تطير بالأجنحة وتنجو بنفسها أو تنتقل بها من شجرة إلى أخرى . ولذلك احتاجت هذه اللبونات الجديدة إلى أن تعتمد فى التنقل على الأغصان أو الانتقال من شجرة إلى أخرى على أيديها .

وأبعد إيماءة إلى أصلنا هو الليمور . وهو أنواع كثيرة تختلف أحجامها من حجم الفأر إلى حجم الثعلب . وهو حيوان ليلى يسعى فى الظلام ثم يختبئ وينام فى النهار . ولأنه ليلى جمع عينيه فى وجهه مثل البومة التى تصيد فى الليل . ووجهه غير بشرى ؛ فان أنفه يجتمع بفمه فى فم بارز ، وشفته العليا مشقوقة ، ومنطقة أنفه وفمه رطبة كالبقر . وهو يستعمل يديه الاثنتين ، لا الواحدة للتناول . وقد يتناول طعامه أحياناً بفمه . وهو من أقدم اللبونات كما يدل على ذلك أنه يعيش فى شرق آسيا وشرق إفريقيا (فى مدغشقر) ولا يعيش فيما بينهما . أى إنه نشأ قبل الانفصال الجيولوجى بين هاتين القارتين ، هذا الانفصال الذى يملأ ثغرته الآن المحيط الهندى .

وهذا الليمور هو إيماءة أولى للانسان . ولكن ما أحقرها من إيماءة ! فانه لايزال يحتفظ بذنبه ، وذكاؤه يقل عن ذكاء الكلب ، ومخه أمسح بلا تلافيف .

وليس من شك فى أننا نحن البشر قد قضينا فترة طويلة من تطورنا على الشجر اكتسبنا بها جملة أشياء ما كنا لنكسبها لو أننا قنعنا بالبقاء على اليابسة . ذلك أن الشجر علمنا وعوّدنا التسلق باليدين . فلم تعد يدانا للمشى فقط بل صارتا أيضاً للتسلق . وبهذا التسلق نفسه تهيأت اليدان للامساك والتناول . ثم كسبنا ، بالمعيشة على الشجر ، الاعتماد على العين بدلا من الاعتماد على الأنف . فزاد وجداننا أى درايتنا بالوسط الذى نعيش فيه . لأن الحيوان الذى يسعى بأنفه ويسترشد بالشم ، لا يدرى إلا البقعة التى هو فوقها أو القليل مما حولها .

ولكن الحيوان الذى يقعد على غصن الشجرة أو يرتفع إلى غصونها العالية يرى بعينيه جملة كيلومترات محيطة بالشجرة . ونحن هنا كالطير ، ولكننا نمتاز على الطير من حيث إن أيدى الطير صارت أجنحة ، أما أيدينا فبقيت للتسلق ثم للتناول .

وإذا كان الليمور إيماءة أولى ، فان الطرسير إيماءة ثانية . فانه حيوان يتفق مع الليمور من حيث إنه ليلى كالبوم . والبومة ، لأنها تصيد فى الظلام أو الغبشة ، تحتاج إلى أن تكون عيناها فى وجهها ، لا فى صدغيها كالحمامة أو الدجاجة ؛ لأنها تحتاج إلى التميز الصحيح للاشباح بعينين اثنتين تريان معاً . وليس الشأن كذلك فى سائر الطيور النهارية التى ترى بعين واحدة . ولا بد أننا قضينا فترة طويلة من تطورنا ونحن نسعى فى الليل على الشجر ، كما هو الشأن فى الليمور والطرسير . وهذه الفترة هى التى جمعت عينينا فى وجهنا ونقلتهما من صدغينا . فصرنا ننظر إلى الأشياء بعينين نظراً كاليدسكوبيا ، أى إن الصورة التى تنقلها إحدى العينين تراجعها العين الأخرى وتصححها وتنقل ظلالها ، فتتجسم الرؤية . وهذا المنظر الكاليدسكوبى هو ما يطمع فى تحقيقه هذه الأيام المشتغلون بالأفلام السينمائية . أى إنهم يرغبون فى تجسيم الصور حتى لا تكون فتوغرافية فقط . وجميع الحيوانات ، باستثناء القليل ، كالانسان والقردة العليا ، وطيور الليل ، تنظر النظر الفتوغرافى بعين واحدة فى أحد الصدغين . فالرؤية عندها غير مجسمة ، أى غير متقنة .

ولكن حياتنا على الشجرة أكسبتنا ميزة أخرى لا تقل عن ميزة الاعتماد على العين ، أى على العينين معاً ، دون الاعتماد على الأنف ، هى ميزة استخدام اليد للتناول . فان التسلق على الشجر يهيئ اليد والأصابع للتناول ؛ لأننا تعلمنا من القبض على الغصن كيف نقبض بعد ذلك على العصا أو الحجر ، وكيف نتناول الثمرة باليد وننقلها إلى الفم بدلا من أن نمد شفتينا إلى الثمرة . وساعدنا هذا على وضع جديد للوجه البشرى ؛ لأن الفكين تراجعا للوراء ورقت الشفتان . فصار لنا وجه مستقيم عموديا ولا يبرز منه الفكان من أسفل . وساعدنا هذا بعد ذلك ، على أن نتخذ الوضع العمودى لأجسامنا بدلا من الوضع الأفقى الشائع بين الحيوانات .

اعتبر مرة أخرى الميزات العديدة التى نلناها من حياة الشجر :

١ — إن عقلنا أصبح عقل العين بدلا من عقل الأنف ، عقل الآفاق البعيدة والمقارنات الكثيرة . وما زلنا نقول : مارأيك ؟ يجب أن تتبصر . وهذا هو التفكير العينى .

٢ — اكتسبنا من الشجر استعمال اليد لتناول الطعام وغيره بدلا من استعمال الفم .

٣ — واكتسبنا أيضاً القامة العمودية ، وكان تسلقنا على الشجر هو التدريب الأول لذلك .

٤ — واكتسبنا هذا الوجه البشرى الذى لا يبرز فيه الفكان .

ولكن حياة الشجر علمتنا أيضاً أخلاقاً جديدة ، ما كنا لنصل إليها لو أننا بقينا على اليابسة ، منها عناية الأم بأطفالها أو هذه الأمومة البشرية فى التزامها لأطفالها مدة طويلة ، وكذلك اعتماد الأطفال على الأم . وهذه المدة الطويلة قد هيأت الفرصة للتربية .

ذلك أن سكنى الشجر لغير الطيور خطرة على حيوان لبون لا يطير إذا هاجت الريح وضربت الغصون ، أو إذا تسلق ثعبان وحاول أن يأكل الصغار . وهى أخطر على الأطفال الذين يجب أن تحرسهم الأم وتدأب فى المحافظة عليهم من السقوط أو من عادية الوحش . وهنا الفرصة العظيمة للنمو العقلى مدة الطفولة .

ونستطيع أن نصف الانسان منذ بداياته الأولى بأنه حيوان عينى ، لاحيوان أنفى ، وأنه أيضاً حيوان عمودى لا حيوان أفقى ، وانه أيضاً حيوان يدوى .

ولكن هذه البدايات نجدها جميعا فى الليمور الذى تنأى أصوله إلى ماض سحيق ؛ برهاننا عليه إنه كان يعيش قبل الانفصال الجيولوجى بين أفريقيا وأندونيسيا حيث لا يزال هو إلى الآن يقيم فى هاتين المنطقتين : مدغشقر وأندونيسيا .

ولكن هذه بدايات فقط فى الليمور لانها غير تامة ؛ فان عينيه لم يتقاربا التقارب البشرى . وهو لا يزال يمشى على أربع مع القدرة على الوقوف

والتسلق . فاذا انتقلنا من الليمور إلى الطرسير ، وهو حيوان ليلى كالبومة ، وجدنا تقارب العينين ، ووجدنا ميزة أخرى هى أنه لا يمشى ولكنه يثب على قدميه كما نثب نحن حين نكون مقيدين . وهذا الوثب قد انتفعنا به لأنه نقل عبء الجسم من أصابع القدمين إلى رسغيهما ، فكانت القامة العمودية .

وظهر الطرسير ، فى تجاربه البشرية الأولى ، من أقل من ثلاثين مليون سنة ، وكنا نحن هذا الطرسير ننظر فى الظلام كالبوم ونثب على رسغينا ، ونأكل كل شئ بلا تخصص كما نفعل الآن . فلم نقتصر على الثمر ولم نقتصر على الحشرات . فنحن من حيث الطعام « موسوعيون » لا نتخصص .

والطرسير مع ذلك حيوان سحيق ؛ لأن الفرق بينه وبين الغوريلا أكبر جدا من الفرق بين الغوريلا وبين الانسان ؛ فان مخه لم يغطّ الى الآن مخيخه كما هو الشأن فى القردة العليا .

ولأمر ما نجهله نزل الانسان الأول ، وهو شئ بين الطرسير والقرد ، إلى اليابسة ، واستطاب الاقامة على اليابسة حيث الأمن فيها على الأطفال مكفول . لأن سقوط الأطفال من الشجر كان من الهموم العظيمة التى كان يعانيها أسلافنا قبل ملايين السنين ، واستطاع أن يسعى على اليابسة . يسعى بالوثب أولا ثم بالمشى ثانياً بالاعتماد على الرسغين .

ولكنا لما تركنا الشجر كانت أذنابنا لا تزال عالقة بنا ، بل هى لاتزال كذلك فى العصعص الذى يجمع عندنا من الفقرات ما يكفى لذنب محترم يليق لأى حيوان يعيش على الشجر ويتعلق بالغصون . وكل ما نحتاج إليه كى نسترد أذنابنا قليل من اللحم والجلد . . . ولكن إقامتنا على اليابسة أغنتنا عن الأذناب . لأن اليد كانت قد تحررت فصارت تتناول وتذب الهوام وتقتل الحشرات . وفى حيوان مثل الانسان قد استقر على أن يعيش على اليابسة ، يعود الذنب عبئاً يجب التخلص منه وقت القتال . وكان لا بد من زواله .

وكان لابد من أن نترك الشجر : أولا للأمن الذى ذكرنا ؛ لأن حياة الصغار على الغصون كانت عرضة لأخطار السقوط . وثانياً لأن غذاءنا من الأثمار لم يعد يكفينا ؛ وخاصة لأن الأثمار ليست دائمة إذ هى موسمية . وكسبنا من اليابسة جملة أشياء :

أولها أن اليد التى كانت قد كادت تتخصص فى القبض على الغصون قد

أصبحت مكلفة واجبات جديدة فى التناول . فتطورت الأبهام حتى صارت كأنها يد أخرى تواجه الأصابع الأربع لا تقف معها فى صف كما هو الشأن فى الأورانج أوتان الذى لا يزال ملازما للشجر ؛ فهو يحسن القبض على الغصن والتعلق به ، ولكنه لا حسن التناول للحجر أو العصا . ثم اكتسبنا القامة العمودية للمشى .

وقد احتجنا فى هذا الانتقال من الشجر إلى اليابسة ومن القامة الأفقية إلى القامة العمودية إلى رباطات جديدة تربط أمعاءنا حتى لا تسقط . ولكن هذه الرباطات لم تتأصل فى طبيعتنا إلى الآن . كما نرى مثلا من هذا المرض البشرى ، والبشرى فقط ، أى الفتق ، حين تنهار الأمعاء عند الرجل وتسقط فى الكيس أو حين تفتق صرة المرأة وتخرج . فان هذا المرض الذى لا يمكن أن يصاب به كلب أو بقرة أو فأر نصاب نحن به للقامة العمودية التى اتخذناها ، ولما تحقق جميع أدواتها التى تحميها وتبقيها فى صحة وسلامة .

العين ، واليد ، والابهام ، والرسغ ، هذه الأربعة قد نقلتنا من طور الحيوان إلى طور الانسان ، وهيأت لنا حالا جديدة أو وضعاً جديداً استطعنا به أن نجعل الرأس كبيراً يتسع للمخ الكبير الذى كسا المخيخ بل طغى عليه . ولولا هذه الأربعة لما استطعنا أن نصل إلى الوجدان والذكاء والمعرفة ثم الحضارة والرقى . لأن المخ البشرى ، بالمقارنة إلى الجسم ، هو أكبر مخ على هذا الكوكب . ولولا أن قامتنا عمودية لما استطعنا أن نحمله . ولو كان هذا المخ البشرى فى رأس الذئب أو الفرس لكسر عنقيهما لأنهما يحملانه حملا أفقيا لا عموديا .

ولكن مخًّا كبيراً بلا عينين تنقلان إليه أخبار الوسط لا قيمة له ؛ إذ لن يجد المادة التى تحمله على التفكير والمقارنة والاستنتاج أى الذكاء . ثم كذلك مخ بلا يد تصنع الأدوات والآلات لن يؤدى إلى اختراع حضارة . ثم كل هذا لم يكن مستطاعاً لو لم نقف على أرساغنا أى على كعوبنا وقفة عمودية .